الحضور الصوفي في فكر الدكتور عبد الرزاق قسوم

الدكتور الأخضر قويدري
أستاذ محاضر بفرع الفلسفة قسم العلوم الإنسانية
ورئيس المجلس العلمي لكلية العلوم الإنسانية والاجتماعية
جامعة عمار الثلجي الأغواط

إن الذي يقترب من المفكر **عبد الرزاق قسوم**يكتشف رجلا يحمل بين جنبيه قلبا متواضعا، وعقلا حصيفا يبشر بفلسفة حكيمة معتدلة تتخذ من سعة الإسلام ورحمته هدفا استراتيجيا في زمن كثر فيه الصراع وانغلقت فيه قنوات الحوار.

عرفْتُه عن كثب حينما أشرف علىرسالة الدكتوراه التي أنجزتها حول الفكر التربوي الصوفي، وكنت أعتقد خطأ أن الرجليختزن في عقله ذكريات الصراع المرير بين جمعية العلماء المسلمين و الطرق الصوفية ، فتأكّد لي انفتاحهسلامة صدره، و تواضعه وحبه للحق ،بل تبين لي من خلال المناقشات التي كنت أفتحها معه أنه روحاني التفكير إلى أبعد الحدود وإن لم يبح بذلك.

كل ذلك ترك فيّ انطباعات بأن هذا المفكر رجل إجماع بحق ، إذ أنه يسعى من خلال ما يكتب وما يقول وما يفعل، إلى بناء **فكر إسلامي تواصلي تراحمي**يقدّر الخصوصيات والقناعات والمشارب ولا يقصي أحدا من أهل الملة المحمدية.

ومن هنا تأتي مداخلتي للإجابة عن بعض الأسئلة هي:

. ما موقف المفكر عبد الرزاق قسوم من الطرق الصوفية في الجزائر؟

. وهل استطاع حقا التقريب بين جمعية العلماء والزوايا في الآونة الأخيرة؟

. وإذا كان كذلك فما هي الآليات النظرية والعملية التي اتخذها لتحقيق ذلك الغرض؟

1. القبول بالآخر سلوك حضاري:

نحتاج في عصرنا هذا إلى الإعلان عن "**حق الاختلاف**" الذي هو حق من حقوق الإنسان إنّ لم يكن أبرزها، وذلك حتّى يكون اختلاف الآخر عن الآخر أمر لا جدال فيه، أي حتّى يتم قبول كلّ فريق بالفريق الآخر،كما هو عليه في معتقدهوتوجهاته.

وما دمنا لم نصل إلى عدم اعترافنا بحق الغير في الاختلاف عنا ، فإننا بعيدون عن الفكر الإنساني المتحضر.لأن الفكر الذييهدفإلى قهرالآخر، أو إقصائه،سرعان ما يتصدع بناؤه، و يأفل نجمه .

هكذا ينبغي لجميع المتنوّرين أنّ يكتبوا بيان الاختلاف، معترفين ببعضهم، مقرّين بأن الواحد هو شطر الآخر وبأن العقائد والمذاهب ما هي إلا وجوه لحقيقة واحدة، وأنالاعتراف بحق الغير يعني اعتراف بحقه فيالوجود.

ولا يخفى أننا إذا نجحنا في الإقرار بالاختلاف وأنه ضرورة من ضرورات الحياة، استطعنا أنّ نبدأ الطريق نحو التحضر.

وحسبنا كمسلمينأنّ تستثمر أصول الإسلام التي لا يكون المسلم مسلماً إلاّ بها، ثم نعي بعد ذلك دور العقل الإسلامي في تفعيل لاختلاف وترشيده كضرورة حياتية وحضارية[1].

إن من آداب الاختلاف بين المسلمين أنّ يتحدواعلى أصول الإسلام ، وأن ينظر الجميع فيما وراء ذلك نظرة من لا يبتغي الغلبة على غيره،بل يبتغي الحق والمعرفة الصحيحة " فنحن جميعاً نؤمن بالله رباً، وبسيدنا محمد – صلى الله عليه وآله وصحبه – نبياً ورسولاً، وبالقرآن كتاباً، وبالكعبة قبلة، ونؤمن بأن الإسلام مبني على الخمس المعروفة، وبأنه ليس بعده دين، ولا بعد رسوله نبي ولا رسول، وبأن كلّ ما جاء به سيدنا محمّد – صلى الله عليه وآله – حق، وأن ما اختلفنا فيه فحكمه إلى الله ورسوله، أي أننا متفقون على أسلوب الخلاف"[2]

فالأمة الإسلاميّة – وإن اختلفت فيها المدارس الفكرية– فإنهاتملك أسساً مشتركة تستطيع من خلالها أن تجمع شتاتها وتوحد كلمتها. فهي أمة واحدة ذات دين واحد، وكتاب واحد، ورسولٍ واحدٍ. فإذا هي أدركت هذهالأصول الثابتة جيداً والتزمت بمقتضياتها، استطاعت أن تلتقي على: وحدة الغاية، ووحدة القيادة، ووحدة العقيدة.

ولا بأس من تناول هذه الأسس بإيجازٍ لتتضح المعالم المضيئة في الطريق:

أ. وحدة الغاية: حيث إنّ المسلمين جميعاً يدركون غاية وجودهم في هذه الحياة، وهي :الطاعة الكاملة لله عز وجل الذي قال: (وما خلقت الجن والإنس إلاّ ليعبدون) [الذاريات: 56].

ب . وحدة المنهج: وهو ما أشارت إليه الآية الكريمة:(واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا) [آل عمران: 103].وليس لهذا المنهج إلاّ مصدر واحد، وهو الله سبحانه وتعالى.

ج . **وحدة القيادة:** لقد شاء الله أنّ يكون الإسلام آخر الرسالات السماوية في الأرض، وأن يكون سيدنا محمّد –صلى الله عليه وآله وسلم – آخر الرسل، وهذه الحقيقة يجب أنّ تتضح في أذهان المسلمين، إذ بقدر

---

[1] راجع علي حرب، في الاختلاف، مجلة منبر الحوار،بيروت 1409 هـ، عدد 12: ص 25 بتصرف .

[2] المجلس الأعلى للشؤون الإسلاميّة بالقاهرة دعوة التقريب، تاريخ ووثائق للعلامة الشيخ محمّد تقي القمي، طبعة1991م.

التزامهم بها بقدر ما يتيسرلهم التوحد،ونبذ العداوة والفُرقة

د . وحدة العقيدة: فالعقيدة هي الأساس الذي يرتفع عليها بناء الدين، فإذا قوي الأساس سهل على الأمة تصحيح أوضاعها، وأمكن لها الاجتماع واللقاء. وحين تكون العقيدة واضحة في الأذهان مشرقة في القلوب تزول الحواجز التي تفرق بين أفراد الأمة.

ومما سبق ذكره يتضح لنا أنه لا ضرر على المسلمين في أنّ يختلفوا، لأن الاختلاف سنة من سنن الاجتماع، ولكن الضرر كل الضرر في أنّ يفضي بهم الخلاف إلى القطيعة والخروج على مقتضى الأخوة التي أثبتها الله في كتابه العزيز[3].

وكلنا يعلم أننا في زمن كثر فيه الحديث عن حوار الثقافات والأديان، وإنه لن يتأتى لنا كنخب مثقفة أن نحاور الآخر المختلف عنا دينا وعقيدة وثقافة ، دون أن نبدأ أولا بحوار مع الذات، أعني فتح الحوار ما أهل ملتنا ممن لا يختلفوا عنا إلا في بعض القضايا الفرعية.

وهذا الحوار مع الذات هو المؤهّل للحوار مع (الآخر)، والذي سوف لن يتحقق على أرض الواقع إلا إذا استوفى شروطه كاملة، وأولها الاعتراف (بالآخر) سواء كان المقصود (بالآخر) على مستوى الذات بتنوعاتها، أو كان المقصود (بالآخر) المختلف عنا فكرا وعقيدة.

وفي ما يخصالتقريب بين المدرسة الصوفية وبين المدارس الإسلامية الأخرى،**والذي أرسى دعائمه أستاذنا المفكر عبد الرزاق قسوم** الجزائر، فإنه يعدّ سببا لجمع الشمل، ورأب الصدع، وتبادل حسن الظن والتقدير بين أبناء الملة الإسلامية الواحدة، "من أجل صيانة وحدتها، والحفاظ على مقاصد الشريعة التي تقر وتحفظ مصالح الجميع"[4].

و إذا كانت المدرسة الصوفية قد تعرضت لحملات قاسية من الانتقاد شنتها بعض التيارات عليها، فإن ذلك لا يقلل من أهميتها في أن تكون مصدرا للتربية الإسلامية، ورافدا هاما من روافد الفكر الإسلامي. لأن الباحث المنصف يدرك جليا أن التصوف استطاع بالفعل أن يلعب دورا كبيرا في تكوين العقل الإسلامي، و توجيه بعض مظاهر الحياة على مر التاريخ. كما يدرك أن تلك الانتقادات التي وجهت إليه لم تعق انتشاره، ولا استمرار حضوره في المجتمعات الإسلامية بل إنها كانت عوامل إيجابية ساهمت في تخصيبه، وإثرائه، وتقويم مساراته.

والحقيقة أن ذلك الصراع الفكري لم يكن سائدا بين الصوفية وغيرهم فحسب، بل كان سائدا أيضا بين الفقهاء والفلاسفة وبين علماء الكلام و الفقهاء، وبين الفلاسفة وعلماء الكلام. هذا دون أن ننسى تلك الصراعات

---

[3] أحمد علي الملا ومحمد بشير الرز، العقيدة الإسلاميّة، دراسة وتطبيق: دمشق 1404هـ ،ص 11 بتصرف.

[4] منظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، إستراتيجية التقريب بين المذاهب الإسلامية، الرباط، 2004م، ص6وص 38.

الفرعية التي كانت تحدث من حين لآخر حتى داخل المدرسة الواحدة، مما يدل على خصوبة الحياة الفكرية الإسلامية، وحيوية العقل الإسلامي بجميع أطيافه واتجاهاته.

وعلى هذا الأساس فإن الموضوعية العلمية تقتضي منا أن نقتنع بوجود ذلك الاختلاف الذي كان سائدا بين سائر الاتجاهات داخل الإسلام، وأن نحترم خصوصية جميع المدارس التي عبرت – رغم تمايز رؤاها و تباين آرائها – عن عظمة الإسلام الذي وسع كل أبنائه– وسيسعهم إن شاء الله– مهما اختلفت مشاربهم واتجاهاتهم، دون أن يضيق بأحد منهم[5].

2. إستراتيجية التقريببين جمعية العلماء المسلمين و الطرق الصوفية:

إن الحكيم الحق هو الذي يسعى لتكثير الأصدقاء والمحبين رغم ما يوجد بينه وبينهم من تباينات،وهو الذي يسعى لأن يجعل من قناعاته وتصوراته الشخصية، مطية للحوار الإيجابي بين العقول التي تخالفه.

فإذا استطاع أن يردم هوة سحيقة باعدت بين تيار ينتسب إليه و تيار آخر يغايره ، يكون قد جمع حقا بين الحكمة والذكاء وسلامة الصدر.

تلك هي الخلال التي أراها قد تحققت بالفعل في أستاذنا المفكر **عبد الرزاق قسوم** حفظه الله، حيث استطاع –منذ توليه رئاسة جمعية العلماء المسلمين– أن يُوصِد باب الصراع الذي دار طيلة عقود بين هذه جمعية العلماء المسلمين والطرق الصوفية، متمثّلا قوله سبحانه وتعالى:(إنّما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون)

[الحجرات:10]حيث جاء في تصريح له :"... أول ما انتُخبتُ أنا ، أو قبل أيام من انتخابي ، كنت في زاوية الدروس المحمدية بتلمسان وألقيت محاضرة أمام الشيخ بلقايد متّعه الله بالصحة إن شاء الله، وكانت محل ثناء، فجاءني مسؤول الخبر وهو موجود وأجرى معي حديثا فقلت له:**أن الخلاف التاريخي الذي كان بيننا وبين الزوايا انتهى، وأُعْلِنُ منذ الآن أنه انتهى**"[6].

ولا شك أن هذا التصريح الحضاري من المسؤول الأول لجمعية العلماء المسلمين، قد بني من طرفه على جملة من المعطيات هي :

أولا: أن أسباب الصراع التي كانت سائدة بين الطرفيذ والمتمثلة في وجود عدو استعماري قديم . قدزالت نهائيا.

---

[5] قويدري الأخضر، الفكر التربوي الصوفي، دار نينوى، دمشق،2010م ، ص ص 408 و 409.

[6] حوار أجراه رشيد ولد بوسيافة يوم الخميس, 04 أبريل 2013 http://www.binbadis.net .

ثانيا: إن تقدم المستوى العلمي في مجال العقيدة والتفقه، سمح للزوايا، وللمصلحين ولكل المؤسسات الدينية، بأن يلتقوا جميعا في عمل مشترك يهدف أساسا إلى إصلاح الإنسان، و إصلاح المجتمع، وإصلاح القلب، وإصلاح العقل[7].

و قد حقق هذاالتصريح في اعتقادناهدفيناستراتيجيين هما:

1. انفتاح أفراد كُثر من الجمعية و من الزوايا على بعضهما.
2. تجفيف كل منابع الفتن التي كانت يمكن أن تعصف بأمن الشعب الجزائري في ما لو ظل الصراع قائما بين الطرفين.

لقد فقه أستاذنا الكريم أن مجابهة المأساة الوطنية التي مر بهاالوطن جزائري في التسعينات،يتطلب نبذ كل ما يمكنه أن يؤجج نيران الفتن، كما يتطلب البحث عن سبل التقارب والتواصل بين كافة الخِيّرين في هذا الوطن.ولذلك جاء تصريحه إشراقة من نور أثلجت صدور كل الباحثين عن المحبة والألفة من الطرفين، الجمعية والزوايا على السواء.

ولم يكن تصريحه ذلك مناورة سياسية، قوامها القول المجردّ عن الفعل،بل إنه جسّد كلامه بأفعال يشهد له بها كل من تتبع نشاطاته العلمية. حيث أنه ما من ملتقى علمي نُظّم حول التصوف من طرف الزوايا أو من طرف الجامعاتو الهيئات العلمية، ودعي إليه، إلا و استجاب له بصدر رحب بحسب ما تسمح به ظروفه،وأبدى فيه وجهة نظره التي لا تحارب التصوف ولا تبدّع أهله على الإطلاق، وإنما تعادي جملة الانحرافات الأخلاقية والعقدية التي ألصقها به الجهلة، وهو في هذا يتفق تماما مع كل الصوفية المعتدلين.

إن توازن أستاذنا الفاضلفي معالجة قضايا التصوف، فتح قنوات من التواصل بينه وبين مختلف الزوايا المتواجدة في القطر الجزائري،بل وحتى الدوائر الصوفية الموجودة في الخارج ، وقد تجلى هذا الأمر في التواصل المستمربينهوبين تلك المؤسسات كلما سنحت الفرص لذلك.

وقد شهدتُأنا شخصيا زيارتين قام بهما إلى الزاوية الحبيبية الشاذلية بالأغواط إحداهما سنة 2004م، والأخرى في شهر رمضان من سنة 2006م. وقد تركتْ تينك الزيارتان أثرا طيبا في قلوب المريدين ما تزال ثمارها باقية إلى يومنا هذاإلى حد أنه وقعت في قلب شيخ هذه الزاوية محبة عميقة لهذا المفكر الذي أظهر من التوقير والتواضع ما بهر الجميع. وما تزال هذه العلاقة الطيبة بين الزاوية الحبيبية و بينه متجددة إلى يومنا هذا .

ولْندعْه يحدّثنا بنفسه عن علاقاته الودية مع شيوخ الزوايا،حيث يقول:" ...عندما كوّنَا صحيفة الشيخ **مأمون القاسمي**[8]متّعه الله بالصحة، كان يرسل لنا بياناته للإطلاع عليها، وعندما تكون هناك قضية معينة كنا

---

[7] حاوره : عبد الرحمن أبو رومي يوم الخميس 23 فبراير 2012 20:25 .إسلام أون لاين .

[8]شيخ الزاوية الرحمانية الهامل ببوسعادة .

نتصل به ويتصل بنا.ونحن نتصل بالشيخ **عثماني**[9] بطولقة، و بالشيخ **الطاهر آيت علجت**[10]. فبالنسبة إلينا هؤلاء علماء بغض النظر إن كانوا صوفيين أو غير ذلك"[11]

ولا جدال في أن هذه المودة التي أرساها أستاذنا الفاضل مع شيوخ الزوايا، قدأدخلت جمعية العلماء المسلمين في مرحلة تسامحية تواصلية مباركة لم تعهدها من قبل.ويحق لنا أن نستنتج أن تاريخ جمعية العلماء في علاقتها بالزوايا يمكن أن تُقسم إلى مرحلتين:

أ. **المرحلة الأولى:** ما قبل رئاسة الدكتور عبد الرزاق قسوم للجمعية.وقد شهدت هذه المرحلة صراعا مريرابين الطرفين خصوصا في الفترة الاستعمارية، وما بعد الاستقلال.

ب . **المرحلة الثانية:** فترة رئاسته للجمعية، وقد تميزت بالمصالحة بين الطرفين.

وبهذا تكون **فترة رئاسةأستاذنا الكريم للجمعية هي اللحظة الفارقة في تاريخ العلاقات بين الجمعية والطرق الصوفية**، والتي تميزت بالتعاون والتوصل،ونبذ الأحقاد، وهو ما قرره في هذا التصريح :

"إن هناك تعاونا بيننا وبين إخواننا في الزوايا في كل الأنشطة الثقافية، نحن ندعوهم إلى أنشطتنا، وهم كذلك ويكفي أننا خلال الندوات التي عُقدت كنا ندعو شيوخ الزوايا، وكل الشيوخ تربطنا بهم علاقة طيبة، وهم أيضا يوجهون لنا الدعوات لحضور مختلف نشاطاتهم العلمية والدينية والثقافية، وهذا عامل من عوامل إزالة كل أنواع الصراع.

كما أن المصلحة الوطنية اليوم تقتضي توحيد الجهود، وهذه الغاية لا تتأتّى إلا بتعاون كل المخلصين الصادقين في هذا الوطن، وهذا نأمل أنه قد انطلق، وهو موجود في الساحة من حيث هو واقع ملموس.لذلك وبناء على هذه المعطيات كلّها أسمح لنفسي أن أقول:***إن ما يسمى بالصراع بين الزوايا و جمعية العلماء، انتهى بصفة نهائية، إن شاء الله""***[12]

إنه ومن خلال هذا التصريح يمكننا أن نستشف أن **الأستاذ محمد الأكحل شرفاء**قد جانب الصواب عندما ذكر أن الصراع بين الطرفين قد انتهى في عهد في عهد **الشيخ البشير الإبراهيمي رحمه الله**[13]. فالشيخ المذكور كان من أكثر الناس عداء للزوايا، ولم يحدث في عهده أن تقاربالطرفان، ولم يوجد في كتاباته ما

---

[9] شيخ زاوية طولقة بولاية بسكرة .

[10] شيخ أحد الزوايا بمنطقة القبائل.

[11] حوار أجراه رشيد ولد بوسيافة يوم الخميس, 04 أبريل 2013 http://www.binbadis.net .

[12] حوار مع أ د عبد الرزاق قسوم أجراه معه عبد الرحمن أبو رومي يوم الخميس 23 فبراير 2012 20:25 .إسلام أون لاين .

[13] الشروق أولاين السبت 29 مارس 2014 ميلادي الموافق لـ 27 جمادى الأولى 1435 هـ .

يشهد بذلك، وليس أدل على موقفه المناهض للصوفية في الجزائر من هذا النص الذي بين أيدينا والذي جاء فيه :

" ...وعلمنا أنها (أي الطرق الصوفية) هي السبب الأكبر في ضلالهم في الدين والدنيا، ونعلم أن آثارها تختلف في القوّة والضعف اختلافًا يسيرًا باختلاف الأقطار، ونعلم أنها أظهر آثارًا وأعراضًا وأشنع صورًا ومظاهر في هذا القطر الجزائري والأقطار المرتبطة به ارتباط الجوار القريب منها في غيره، لأنها في هذه الأقطار فروع بعضها من بعض، ***ونعلم أننا حين نقاومها نقاوم كل شر، وأننا حين نقضي عليها- إن شاء الله- نقضي على كل باطل ومنكر وضلال، ونعلم زيادة على ذلك أنه لا يتم في الأمة الجزائرية إصلاح في أي فرع من فروع الحياة مع وجود هذه الطرقية المشئومة، ومع ما لها من سلطان على الأرواح والأبدان، ومع ما فيها من إفساد للعقول وقتللمواهب***".[14]

وعلى هذا فإنه بمقارنة بسيطة بين ما ذكره المفكر قسوم وما جاء في نص المرحوم الشيخ الإبراهيمي، نصل إلى أن الجمعية قد شهدت تطورا إيجابيا واضحا في علاقتها بالزوايا منذ نشأتها إلى فترة مفكرنا موضوع هذه المداخلة.

لكن من الإنصاف القول أن بوادر الانفراج بين الطرق الصوفية والجمعية قد لاحت في الأفق **مع الشيخ عبد الرحمن شيبان رحمه الله**،و ذلك ما نلمسه في خطاب ألقاه رحمه الله في افتتاح أشغال الجمعية العامة الثالثة لمؤتمر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، سنة 2008م، بالعاصمة الجزائرية،حيث أكد على هذا بقوله: " ...إنه كان بين الجمعية والطرق الصوفية اختلاف، وذلك لأسباب تاريخية سياسية ودينية، ولكننا نرى أن التصوف الحق الملتزم بالكتاب والسنة -باعتباره حياة روحية، واستقامة ومجاهدة للنفس وأهوائها- لا تعاديه الجمعية ولا الإصلاح، ***ونحن في عصر يتحدى الإسلام والمسلمين جميعا، فلابد من جمع الجهود وتوحيد المساعي، لخير ديننا ووطننا***"[15].

نعم يمكن القول أن المرحوم الشيخ عبد الرحمن شيبان قد أعطى إشارة بدء مشروع التصالح، فجاء الدكتور عبد الرزاق ليكمل تفاصيله، ويحققه على أرض الواقع.

3. في مواجهةالتصوف المنحرف:

[14]أحمد طالب الإبراهيمي، آثار الإمَام مُحَمَّد البَشِير الإبراهيمي، دار الغرب الإسلامي.ط1، 1997 . ج1/ص ص 189-191 .

[15] انظر خطاب عبد الرحمن شيبان، خلال افتتاح أشغال الجمعية العامة الثالثة للمؤتمر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، صبيحة يوم 2 جمادى الأولى 1429هـ الموافق لـ 7ماي 2008م، بالعاصمة الجزائرية.

إن انفتاح **المفكر عبد الرزاق قسوم** على الطرق الصوفية، لا يعني أنه قد تخلى عن أفكاره التي تربى عليها في رحاب جمعية العلماء المسلمين والتي تقضي بمحاربة البدع والخرافات التي لصقت بالدين سواء من طرف بعض الطرق الصوفية أو غيرها، فهو لم يغير فكره الإصلاحي **بلظل يحارب كل انحراف عقدي أو أخلاقي مهما كان مصدرهما.**

لكني أعتقد جازما أنه–و بحكم تكوينه الفلسفي العميق –يدرك جيدا أن التصوف حقل معرفي هام لا يمكن الاستغناء عنه لمن يريد دراسة الفكر الإسلامي عبر تاريخه الطويل،وأن معاداتهتعني تشويه هذا التاريخ والتعتيم على أحد مكوناته الأساسية.هذا من جهة، ومن جهة ثانية، فإنه ومن خلال توجهاته الدينيةالمعتدلة يعي تماما أن الصوفية ساهمواوما يزالون في تزكية النفس البشرية وترقيتها عبر مدارج العرفان بمناهج تفننوا فيها دون غيرهم، ولم يباريهم فيها أحد من علماء المسلمين.فإذا اجتمعت هذه المعطيات في عقل متزن حصيف كعقل الأستاذ قسوم فإنه لا يمكنه إلا أن يقبل بالتصوف فكرا وسلوكا.

لكن هذا لا يعني أن الرجل متسامح في ما يمس قداسة الدين ونقاءه،فقد ظل يندد بالخرافات وأنواع الشعوذة التي تسبب في ظهورها الجهل بالدين، والتي كانلبعض الطرق الصوفية في مرحلة من مراحلها، اليد الطولى في ترسيخها في عقول الناس.فيقول في هذا الشأن:"**نحن ضد الصوفية التي تشطح، ونحن ضد السلفية التي تنطح، نحن مع الوسطية والاعتدال، في كل ما يمكن أن يكون**"[16]

غير أن النقد الذي وُجه للطرق الصوفية أيام الجمعية في العهد الاستعماري يختلف تماما عن النقد الذي يوجهه المفكر عبد الرزاق قسوم اليوم في عهد الانفتاح والتواصل.

ففي العهد الاستعماري وصل الحد ببعض علماء الجمعيةإلى اتهام الطرق الصوفية بالشركوالمروق عن الدين بسبب قضايا أقل ما يقال عنها أنها خلافية بين علماء الإسلام أنفسهم منذ أمد بعيد ،كزيارة الأضرحة، والتوسل بالأولياء.

فهذه القضايا تحولت – تحت تأثير الفكر الوهابي – من قضايا اجتهادية خلافية إلى قضايا عقدية، فنشأتمن جرائها شروخا كبيرة في وحدة الأمة، وتمزقات فضيعة ما يزالالمسلمون في شتى بقاع العالم يجنون ويلاتها.

وللتاريخ فإن مجتمعناالجزائري لم يعرف مشكلة التبديع والتشريك والتكفير إلا بعد تنامي الفكر الوهابي الذي كانلبعض علماء الجمعية دور في نشر مبادئه،ومن هنا كان اصطدامها(أي الجمعية) بمجتمع جزائري ظل يحمل في لاشعوره الجماعي حب التصوف وأهله، وقد تجلى هذا الاصطدام في الصراع المريرالذي دار بين الجمعية والزوايا مما لا حاجة لنا الآن في إعادة الحديث عنه.

---

[16] أنظر نص الكلمة في مجلة أقطاب،إلكترونية. http://www.aktab.ma/forms/

وأعتقد أن خطأ الزوايا آنذاك لم يكن بسبب دفاعها عن حقها في الوجود الذي سبق وجود الجمعية بمئات السنين، ولكن الخطأالذي وقعت فيهأن بعضها ساهمحقا في ترسيخ الجهل والخرافة و الشعوذة ، الأمر الذي أعطى للجمعية المبررات والذرائع الكافية لمحاربتها.

على أنه يجب التنبيه إلى أن محاربة الانحرافاتكانت ديدن الصوفية الصادقينمنذ أن نشأ التصوف الإسلامي،حيث كانوا يوجهون سهام نقدهم لكل ازورارعن الحق، وانحراف عن الصواب،محاولين تجديد ما اندرس من قواعد التصوفو تصويب ما اعوجّ من مراسيمه.

وقد يكون نقد الصوفية من طرف مخالفيهم مشوبا بالذاتية ، ممزوجا بالروح العدائية التي لا تبدي في عين أصحابها سوى العيوب والمثالب. لكن إذا كان النقد من داخل التصوف نفسه، ومن طرف أقطابه البارزين، فإن شبهة الذاتية تتهاوى بأكملها، و يصبح لذلك النقد أبعادا علمية إصلاحية لا امتراء فيها.

و يمكن للتدليل على ما ذكرناه أن نورد **نقد الشيخ محي الدين بن عربي**لأدعياء التصوف، حيثلاحظ أن زمانه أصبح مشحونا بالدعاوي الكاذبة"فلا مريد صادق ثابت القدم في سلوكه، ولا شيخ محقق ينصحه فيخرجه من رعونة نفسه وإعجابه برأيه "[17]. والأغرب من هذا أن المريد المبتدئ أصبح "يدعي الشيخوخة والرياسة لِما طرأ عليه من تخبيط وتلبيس"[18].

كما لاحظ رحمه الله أن هناك تعفنا أخلاقيا، وانحطاطا علميا، مسّ العلماء ورجال السياسة في عصره على السواء، ولم ينج منه حتى الصوفية الذين يُفترض فيهم أن يكونوا بمنأى عن ما انحدر إليه غيرهم من العامة، لأن مكانتهم الدينية تجعل من انحرافهم فتنة لغيرهم، ومسا بسمو التصوف ورفعة قدره.

ولفرط استيائه مما شاهد، أرسل رسالة إلى صديقه **عبد العزيز المهدوي**، يبثه فيها شجــونه و أحزانه، و يصف له ما وصل إليه حال التصوف من تدهور وانحدار، فيقول:

"...فالزمان يا وليّ، اليوم شديد، شيطانه مريد، و جباره عنيد. علماء سوء يطلبون ما يأكلون، وأمراء جور يحكمون بما لا يعلمون، **وصوفية صوف بأغراض الدنيا مُوَشّحون**. عظمت الدنيا في قلوبهم فلا يرون فوقها مطلبا، وصغُر الحق في أنفسهم، فأعجلوا عنه هربا، حافظوا على السجادات والمرقّعات، والمشهرات والعكائز، وأظهروا السبحات المزينة كالعجائز. طِغامٌ أطفالٌ، صبيانُ الأحلامِ، لا علم عن الحرام يردّهم، و لا

---

[17] ابن عربي، الأمر المحكم المربوط في ما يلزم أهل الطريق من الشروط ملحق لترجمان الأشواق، تحقيق، محمد عبد الرحمن الكردي، جامعة الأزهر مصر،القاهرة، بدون تاريخ،ص 265.

[18] المرجع نفسه.

زهد عن الرغبة في الدنيا يصدّهم، اتخذوا ظاهر الدين شَرَكًا للحطام، ولازموا الخوانق والرباطات رغبة فيما يأتي إليها من حلال وحرام..."[19].

ولقد زار **إحدى الزوايابمصر** فساءه أن يفتقد في صوفيتها صدق التوجه،وإخلاص الطلب، بل لا حظ أن مغزاهم

"تنظيف مرقعاتهم ، وترجيل لِحاهم".[20]

ومما ساءه أكثر أنه وجد حالتهم في الصلاة على غير ميزانها الشرعي، فاستدلّ بذلك على خراب بواطنهم، إذ الصلاة عماد الدين، من أقامها أقام الدين، ومن هدمها هدم الدين. فقال شاكيالصديقه: "... والله يا وليي لو رأيتهم في صلاتهم ينقرونها، وفي صفوفهم لا يقيمونها، يجعل أحدهم بينه وبين صاحبه في الصف قدر ما يدخل فيه ألف شيطان، ثم إذا جئت أن تسدّ الخلل، تراهم قطّبوا وجوههم، فإن غفلتَ ووطئتَ سجادة أحدهم، لكمك لكمةً حيث جاءت منك، قد يكون فيها حتفك، وهذه وأشباهها هي الطريقة التي أهل زمانك عليها"[21].

و لا شك أن حالة أولئك المتصوفة في العبادات الأخرى، كانت بنفس الصورة التي هي عليها صلاتهم من نقص و تشويه.

والحقيقة أن الانحراف عن جادة الحق،أمر طبيعي يحدث في كل عصر وفي كل مذهب سواء كان تصوفا أو غيره. وإنما يكون النقد بمثابة صدمة الوعي التي تنبه الناس إلى التمييز بين الحق والباطل، وتسقط الأقنعة عن وجوه الكاذبين فيكون ذلك تجديدا للدين، وتطهيرا له مما لحقه من أرجاس المدّعين.

و ما قام ابن عربي من نقد الانحراف الصوفي لا يخرج عما قام شيوخ التصوف قبله وبعده حينما شاهدوا انحراف أهل زمانهم فراحوا ينقدونهم بغرض الإصلاح والتصويب.فقد رأى **سيد الطائفة الإمام الجنيد**رحمه الله(221هـ-298هـ)فساد حال بعض متصوفة زمانه،فأنشد هذه الأبيات:

"أهل التصوف قد مضـوا صار التصوف مخرقــة
صار التصوف ركـــــوة وسجادة ومذلقـــــــة
صار التصوف صيحـــة وتواجدا و مطبقـــــــة
كذبتك نفسُك، لــيس ذي سنن الطريق الملحقــة"[22].

---

[19] ابن عربي، رسالة روح القدس ،ص 116. ضمن مجموعة تضم (الخلوة المطلقة، رسالة روح القدس، الحكمة الحاتمية، نفائس العرفان، الكنه فيما لابد للمريد منه) 03 مجلدات، دار المحجة البيضاء، بيروت، لبنان، ط1، 2000 .

[20]المرجع نفسه، ص 115.

[21] المرجع نفسه، ص ص،116، 117.

[22] المرجع نفسه، ص 117

هذا وقد أسف **الإمام أبو القاسم القشيري رحمه الله**(376هـ .465هـ) من كثرة المدعين للتصوف وقلة الصادقين منهمفي عصره فانشد :

" **أما الخيام فإنها كخيامهـم وأرى نساء الحي غير نسـائها**"[23].

وبنفس التفجع والتوجع كان الشيخ **أبومدين شعيب رحمه الله**(492هـ .537هـ) يصف حال التصوف في زمانه حيث غاب أهل التصوف الحقيقي، وكثر مدعو أحوال القوم طلبا للرياسة واستجلابا للدنيا فقال:

"**واعلم بأن طريق القوم دارسـة وحال من يدّعيها اليوم كيف ترى**"[24]

وهو نفس ما ذهب إليه الشيخ **عبد الوهاب الشعراني رحمه الله**(898هـ-973هـ)إذ يقول واصفا صوفية زمانه:"فلما ذهبوا أي (أي الصوفية الصادقون) زالت حرمة الطريق وأهلها، وصار الناس يسخرون بأحدهم، ويقولون لبعضهم: ما دريتم ما جرى؟ فلان الآخر عمل شيخا. كأنهم لا يسلّمون له ما يدّعيه لما هو عليه من محبة الدنيا وشهواتها والتلذذ بمطاعمها وملابسها ومناكحها والسعي على تحصيلها"[25].

وحتى لا يلتبس على الناس التمييز بين الصوفية الحقيقيين وبين الأدعياء، قدم الشيخ **ذو النون المصري رحمه الله**(ت245هـ)، وصفادقيقا لأهل الحق من الصوفية ، فيقول:

"...هم قوم ذكروا الله بقلوبهم تعظيما لربهم، لمعرفتهم بجلاله. فهم حُجج الله تعالى على خلقه. ألبسهم الله النور الساطع من محبته، ورفع لهم أعلام الهداية على مواصلته، و أقامهم مقام الأبطال لإرادته، وأفرغ عليهم الصبر عن مخالفته، وطهّر أبدانهم بمراقبته، وطيّبهم بطيب أهل معاملته، وكساهم حللا من نسْج مودته، ووضع على رؤوسهم تيجان مسرّته، ثم أودع القلوب من ذخائر الغيوب، فهي معلقة بمواصلته. فهِمَمُهم إليه سائرة، وأعينهم بالغيب إليه ناظرة. أقدمَهُمْ على باب النظر من قربته، وأجلسَهم على كراسي أطباء أهل معرفته، ثم قال عز و جل لهم :إن أتاكم عليل من فقدي فداووه، أو مريض من فرقي فعالجوه، أو خائف مني فأمّنوه أو آمن فحذّروه، أو راغبٌ في مواصلتي فمَنّوه، أو راحل نحوي فزوّدوه، أو جبان في متاجرتي فشجعوه، أو آيسٌ من فضلي فعِدُوه، أو راجٍ إحساني فبشروه، أو حسنُ الظن بي فباسطوه، أو محبٌّ فواطئوه، أو معظِّم لقدري فعظموه، أو مسيء بعد إحسان فعاتبوه، أو مسترد نحوي فأرشدوه...فهذه أحوال العارفين يا وليي وهكذا تكون عمارة القلوب"[26]

---

[23] القشيري، الرسالة القشيرية، ص2.

[24] السكندري بن عطاء الله، عنوان التوفيق في آداب الطريق، ص10.

[25] الشعراني عبد الوهاب،الأنوار القدسية في معرفة قواعد الصوفية، تحقيق،طه عبد الباقي سرور،ومحمد عيد الشافعي،مكتبة المعارف، بيروت،1993،ج1، ص 19.

[26] ابن عربي،رسالة روح القدس ، ص ص،118، 117.

يتبين لنا مما سبق عرضه من نصوص ما كان عليه الصوفية الصادقون من نقد لكل انحراف عن التصوف الحقيقي،حيث أجمعوا على تصويب الاعوجاج والذود عن مقام الإحسان الذي هو جوهر الدين. وما اتخذوا انحرافات المنتسبين للتصوف مبررات وذرائع لهدم التصوف من أساسه،والقضاءعليه كما يفعل أعداؤه. وهذا هو الفرق الجوهري بين النقد من داخل التصوف والنقد من خارجه.

ونحسب أن النوايا الطيبة في تصويب التصوف من أجل بنائه لا من أجل هدمه، متوفرة لدىعند مفكرنا الأستاذ عبد الرزاق قسوم، حيث نلمس في كتاباته وتصريحاته حول التصوف ما يؤكد هذا، إذنجده يشيد دوما بالجانبالمشرق فيهوالمتمثل في تصفية القلب والعقل والجوارح من كل أنواع الفساد.

ففي سؤال وُجّه إليهخلال حوار أجرته معه **مجلة النور** حول حاجة المسلمين للتصوف في الوقت الراهن، يجيب قائلا : "... وتسألونني إن كانت الأمة في لحظتها الراهنة في حاجة إلى التصوف،**إن التصوف الحقيقي كما أفهمه، هو تصفية القلب والعقل، والجوارح من كل أدران الفساد بجميع أنواعه،الأخلاقي والاجتماعي، والاقتصادي، والسياسي،** وبهذا المعنى يكون التصوف ردّ فعل إيجابي ضد الانغماس في الملذات، والنهم المالي، والخلقي، والسياسي، وبذلك يصبح التصوف الإسلامي في أسمى معانيه نوعا من تحصين الذات، ضد أنواع الإنسلاب الحضاري والذوبان السياسي.

أما التصوف السلبي الممارس اليوم، في واقع أمتنا وما يتصل به من شعوذة، وتضليل باسم الدين، فهو بدعة ما أنزل الله بها من سلطان، ينبغي محاربتها، كما نحارب الفساد والظلم باسم حماية حقوق الإنسان الأساسية "[27].

وفي تقسيمه للزوايا يرى بأن هناك زويتان: " **الزاوية المستقيمة** القائمة على الكتاب والسنة، الزاوية العلمية القرآنية هي منا ونحن منها. أما **الزاوية المنحرفة** التي تمارس الشعوذة لا يمكن قبولها"[28].

إن هذا التقسيم هو نفسه الذي يذهب إليه كل الصوفية الصادقون كما مر بنا. وهو الذي استند إليه مفكرنا في معرض حديثه عن مواقفمن عرفهم من شيوخ الزوايا المعاصرين فيقول: "... فالشيخ عثماني(و هو شيخ زاوية طولقة ببسكرة) ذكره الله بالخير في إحدى محاضراته في المجلس الإسلامي الأعلى، **ذكر أن هناك بعض الزوايا يجب أن نشتكي بها للجنة حقوق الإنسان الدولية**"[29] وذلك لفرط انحرافها عن التصوف الشرعي.

---

[27] أنظر نص الحوار في مجلة النور للدراسات الحضارية والفكرية، مؤسسة إستانبول للثقافة والعلوم العدد1 ،2010.

[28] المرجع نفسه.

[29] أجرى الحوار رشيد ولد بوسيافة يوم الخميس, 04 أبريل 2013 موقع .http://www.binbadis.net

وفي معرض حديثه عن أنواع الزوايا يبرز الدور الإيجابي الذي قامت به الزوايا المستقيمة حيث **أنها حافظت على القرآن وصانت اللغة العربية إلى أن حد الشيخ عبد الحميد بن باديس رحمه الله أعطى تعليمات أن لا تحارب الزوايا في منطقة القبائل، لأنها تواجه حملات التنصير، فلا يمكن أن يثقل كاهلها بحرب من طرف الجمعية**[30] .

ولعل خير ما يلخّص لنا موقف مفكرنا من التصوف هو تلك الكلمة المختصرة والوجيهة التي ألقاها في مؤتمر التصوف الذي نظمته العشيرة المحمدية بالقاهرة سنة2011م حيث جاء فيها ما يأتي:

" ...إن العلم بدون إيمان هو خواء وجفاء وهدم للبناء، وإن التصوف بدون علم هو شعوذة ودجل وطقوس وبدع ما نزّل الله بها من سلطان...فلا تصوف إلا بفقه، ولا علم إلا بإيمان.

ذلك أن التصوف في حقيقته عند القوم هو علم الأخذ بالحقائق والزهد في ما عند الخلائق. فعندما يخرج التصوف من الانزواء والاعتزال ويندمج في فضاء الإنسان والمجتمع والأمة، واضعا آمالها وآلامها على طاولة المشرحة، تشخيصا للداء، وبحثا عن الدواء، عندما يفعل التصوف هذا، نقول إن التصوف وجد طريقه حقا وحدد معالمه الصحيحة.فإذا وجدنا في تصوفنا من يدعو إلى ترك الدنيا، وجعلها خلف القفا، في زمن تمثل فيه الدنيا قوام الدين، فلا بد من تصحيح المفاهيم بتدقيق المصطلح، وتعميق المعنى.

وبالمقابل إذا وجدنا من يتجنى على التصوف باسم الولاء للسلف فذلك خلل أيضا يجب تصويبه لأن السلفية تراث مشترك بين جميع المسلمين لا يحق لأيٍّ كان أن ينفرد به حتى وإن اختلفنا في تحديد مبادئه ومعالمه"[31].

4. الخاتمة:

وختاما لهذه الدراسة لا يسعني إلا أن أثني على كل المواقف التسامحيةالتي أبداها **أستاذنا المفكر عبد الرزاق قسوم** إزاء التصوف وأهله، الأمر الذي أدخل جمعية العلماء المسلمين –في عهده – في مرحلة مباركة قوامها التواصل والتصالح مع الزوايا.

لقد كانت مواقفه تلك صادرة من حكمته كفيلسوف واسع الأفق عميق النظر، ومن سلامة صدره كإنسان مسلم يخشى الله و يقدر الأخوة الإسلامية حق قدرها، ومن تجاربه النضالية مجاهد جزائري يهدف إلى توحيد الجزائريين مهما كانت مشاربهم.

---

[30] المرجع نفسه.

[31] وقائع المؤتمر الدولي الأول عن التصوف منهج أصيل للإصلاح المنعقد بالقاهرة في الفترة 24–26 سبتمبر 2011.

وأنا إذ أصفه بهذه الصفات فإني لا أذكر والله إلا حقائق استنبطتها من تصريحاته الشخصية، ومن مواقفه العملية المشرّفة .

ثم أضيف فوق كل ذلك ما خبرته أنا شخصيا من خلال مخالطتي إياه عن كثب أيام تحضيري لأطروحة الدكتوراه–من سنة 2004 إلى 2008– والتي كانت في تتمحور حول **الفكر التربوي الصوفي من الإمام الغزالي إلى الشيخ محي الدين بن عربي رحمهما الله.** وليس راءٍ كمن سمع . فقد فكان لي نعم الأب ونعم المشرف.

ومما اكتشفته فيه أنه كان موضوعيا في محاوراته أياي، وما تدخّل قط في مضامين الأطروحة التي كانت تتعلق بأدق قضايا التصوف الإسلامي، بل كان يشجعني على التعبير عن أرائي بكل حرية، رغم تحفظه على بعض من القضايا التي وردت في رسالتي.

وإني لأجدني قاصرا على حصر فضائله، فقد عرفت فيه جميل كرمه، و كريم التواضع،وسلامة صدره، وحب الخير وأهله،وأذكر أنهما من مناسبة لقيته فيها إلا وسألني عن أهل الزاوية الحبيبية بالأغواط والتي أنتسب إليها،وما ودّعني قط إلا وحمّلني رسالة مودة وإخاء يزفها إلى الشيخ هناك ومريديه طالبا منهم الدعاء له بالخير.

فأرجو من الله عز وجلأن يتمم انتفاعنا به ، وأن يجمع له عز الدنيا وعزّ الآخرة
وأن يجعله من عباده المخلَصين الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

قائمة المصادر و المراجع:

1. القرآن الكريم برواية ورش

2. أحمد طالب الإبراهيمي، آثار الإمَام مُحَمَّد البَشِير الإبراهيمي، دار الغرب الإسلامي.ط1، 1997. ج1.

3. أحمد علي الملا ومحمد بشير الرز، العقيدة الإسلاميّة، دمشق، 1404هـ.

4. السكندري تاج الدين بن عطاء الله،عنوان التوفيق في آداب الطريق، شرح لقصيدة العارف بالله أبو مدين الغوث،المطبعة العثمانية المصرية،بدون تاريخ.

5. الشعرانيعبد الوهاب،الأنوار القدسية في معرفة قواعد الصوفية، تحقيقطه عبد الباقي سروروومحمد عيد الشافعيمكتبة المعارف، بيروت،1993،ج1.

6.ابن عربي، الأمر المحكم المربوط في ما يلزم أهل الطريق من الشروط، ملحق لترجمان الأشواق، تحقيق محمد عبد الرحمن الكردي، جامعة الأزهر، القاهرة، بدون تاريخ.

7ابن عربي، رسالة روح القدس، ضمن مجموعة تضم 03 مجلدات، دار المحجة البيضاء، بيروت، لبنان، ط1، 2000

8. القشيري أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن، الرسالة القشيرية، مطبعة محمد علي صبيح وأولاده، مصر، بدون تاريخ.
9. قويدري الأخضر، الفكر التربوي الصوفي، دار نينوى، دمشق،2010م.
10. المجلس الأعلى للشؤون الإسلاميّة بالقاهرة، دعوة التقريب، تاريخ ووثائق للعلامة محمّد تقي القمي طبعة 1991م.
11المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، إستراتيجية التقريب بين المذاهب الإسلامية، طبعة الرباط، 2004م.

المجلات

1 . مجلة النور للدراسات الحضارية والفكرية، مؤسسة إستانبول للثقافة والعلوم العدد1 ،2010.
2 . مجلة منبر الحوار،بيروت 1409 هـ، عدد 12 .

المؤتمرات:

1. عبد الرحمن شيبان، خطابهخلال افتتاح أشغال الجمعية العامة الثالثة للمؤتمر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، صبيحة يوم 2 جمادى الأولى 1429هـ الموافق لـ 7ماي 2008م، بالعاصمة الجزائرية.
2. وقائع المؤتمر الدولي الأول عن التصوف منهج أصيل للإصلاح المنعقد بالقاهرة في الفترة 24-26 سبتمبر 2011.

المواقع الإكترونية

1. حوار مع أ د عبد الرزاق قسوم أجراه رشيد ولد بوسيافة يوم الخميس, 04 أبريل 2013.
http://www.binbadis.net.
2. حوارمع أ د عبد الرزاق قسوم أجراه عبد الرحمن أبو رومي يوم الخميس 23 فبراير 2012 20:25.إسلام أون لاين
3. الشروق أون لاين السبت 29 مارس 2014 ميلادي الموافق لـ 27 جمادى الأولى 1435 هـ .
4مجلة أقطاب،إلكترونية. http://www.aktab.ma/forms